(7) معًا نعانى

بعض دعاة الإسلام من المربين وبعض قادة الدعوة يستبد بهم اليأس حين يتعاملون مع حالة فتور عام فى أتباعهم، وتسرع إليهم ردة فعل من إبطاء الضعاف، أو قلة بذل أصحاب القدمين، الذين يسيرون بقدم إلى الآخرة، ويجيزون أنفسهم زن تظل القدم الأخرى بين حطام الدنيا.

هؤلاء القادة الجافلون وفى حالة من الذهول عن حقائق الحياة التى فطر الله الناس عليها، والنسيان لقسمة الله أرزاق ومقادير العقول والهمم وحركات القلوب كقسمته أرزاق المال – يستسهلون انتهاج نهج التشدد فى عضوية الجماعة الدعوية، ويبدءون يبشرون بمناقب جماعة خفية، يسرح بهم الخيال إلى الظن بأن فى تكوينها الحل لأنواع الأزمات وأشكال النقص، عماد تكوينها: العباقرة، والأشداء الأذكياء، وأصحاب الجلد وكثرة العطاء، وأقوياء الشخصية، وأهل الصبر، ومن فيهم نزعة المبادأة والمبادرة والريادة واكشاف الجديد واقتحام الخطر. وأما الضعاف، والأقل ذكاء، والأبطأ انغماسًا فى يوميات النشاط، وأهل العرج ولهث الربو، والذين ينظرون من طرف خفى أو جلى إلى بعض المتاع: فمكانهم عند هؤلاء القادة – الواجهات، والجماعات الإسلامية الأخرى، ومؤسسات نبتدعها، وحسبنا أن نوزع الصفوة الأقوياء الذين معنا على هذه الواجهات والجماعات والمؤسسات، يشاركون فى إدارتها، ويقربونها من مفاهيمنا وطرائقنا وأهدافنا، بحيث ينتج من عمل الجميع نسق عام يخدم مصلحة الإسلام فى البلد، من دون كشف ارتباط أفراد الصفوة هؤلاء فى جماعة مركزية واحدة، وإنما يخفون حقيقتهم على طول المدى.

وهذا النوع من التفكير التخطيطى فيه استهواء، وبريق يغرى بعض المستعجلين، فيهيمون غرامًا بتكوين مثل هذه الجماعة المركزية المستترة، ويلتصق حلم تكوينها بشغاف قلوبهم، حتى ليظنون أن ما هم عليه هو مفاد الوعى إذا استتم، وترجمة معنى التطور إذا استوى، وأنه خلاصة التجريب، وآية النضوج. لكن ما وراء ذلك من التحليل المتأنى يُبدى خطورة هذا

التوجه، ويبدى احتمالات كبيرة لأنواع من المشاكل التربوية والنفسية والعملية، بل ينال الفكر فيطعنه ويثلمه، بل يطال موازين الإيمان والفطرة، فيعطلها، وأقل ما فيه أنه عدول عن طريقة الإمام الشهيد حسن البنا ﷺ وأعراف الإخوان المتوارثة، ولسنا نقول بعصمة الإمام، ولا بأن الشكل التنظيمى والمنهج التربوى والفكر الدعوى إذا سنها الإمام وطورها خلفاؤه أضحت نهاية التخطيط وخاتمة الفهم، وإنما نحن نؤمن بالتطوير، وعدم تقديس الشكل التنظيمى، لكنا نلحظ كلما تقدم بنا العمر وتعمقت تجاربنا الميدانية وأطلنا التأمل ووازنَّا النتائج وسرنا فى الآفاق العربية والأعجمية: أن الإمام البنا ﷺ لم يصدر فحسب عن اجتهاد وفهم جزل سليم فى رؤية أبعاد الدعوة وشمولها، ثم فى بنائه لها ونشرها، وإنما صدر عن إلهام ربانى أيضًا، فألهمه الله تعالى الصواب إلهامًا، فجمع بين المثقف والأمى، والصغير والكبير، والحضرى والبدوى، والشجاع والمتهيب، والذكى والبطىء، والقوى والضعيف، والغنى والفقير، والمتجرد والمخلط، رجالاً ونساء، وجعلهم كلهم كتلة مندمجة فى جماعة واحدة تحاول تقديم النموذج الإسلامى النظرى والعملى معًا، وأن تقترب منه ما استطاعت، سافرة معلنة عن نفسها، إلا ما تقتضيه ضرورات الابتداء والتأسيس الأول، أو بعض الظروف القاسية الشديدة الشاذة، وقد انعقد إجماع قادة الإخوان فى الآفاق على انتهاج هذا النمط، وجعلوه عنوانًا للصواب، ولقنه السابق لكل لاحق، فى توارث تؤدى إليه القناعات عبر منهج تربوى متكامل، سهل على مطبقيه ــ بإذن الله ــ تخريج أخ فى نواكشوط بموريتانيا غربًا، هو نسخة طبق الأصل من آخر فى مدينة مراوى بالفلبين شرقًا، أو داعية فى ترستان بروسيا هو شقيق ثان فى موزمبيق بأفريقيا، والذين بين هذه الآفاق الأربعة كلهم كذلك سواء.

نحن لا ننفى صواب الانبثاث فى الأحزاب والجماعات الأخرى، وفى المؤسسات ومرافق الدولة والمجتمع، ومحاولة إصلاحها بمعانى الإسلام كلها وترشيدها بحسب الاستطاعة وتقريبها من التعاون، وتوحيد مفاهيم أهلها والتنسيق بين أهدافها، وإحلال التكامل وتقاسم الأدوار بينها، بل هذا أصل من أصول التخطيط السليم، ومعَلم من معالم الوعى والنضوج القيادى الذى يفترض فيه ترك الانعزال، واطِّراح المشاعر السلبية، من اعتقاد الفوقية والتميز، أو دعوى احتكار الصواب، أو الشهادة على مسلم بجنة أو نار، وإنما تقديم النصح وبذله لأئمة المسلمين وعامتهم.

لكن هذا الجهد فى التوعية والتنسيق يجب أن تقوم به جماعة مركزية واضحة معلنة، تمثل الدعوة بمفهومنا، حيث يراها البدوى والفلاح فى القرية النائية، وصياد السمك على شاطئ البحر، كما يراها الأستاذ الجامعى، والمحامى، والمهندس، والطبيب، والتاجر، كما يراها الناشئ المراهق، كما يراها الملك والرئيس والوزير وضابط الجيش والشرطة، فتكون فى انتصابها السامق أسوة، وحقيقة معنوية مجسدة، وشاهد عصر، ورقيب جيل، تأمر بالمعروف والإيمان والمصالح والعزة والوحدة والنجدة، وتنهى عن المنكر والفساد والفحشاء والبدعة والهزيمة، وتصدع بأذان الجهاد فى كل واد تنطلق منه صرخة مستضعف.

هذا هو الأصل الذى ألفينا عليه إخواننا القدماء، والرعيل الأول، وقد أخذوا بكفوفنا، وربطوا كل معنى بإصبع، ثم ثنوه: إعلامًا بانعقاد الفهم والعرف وقبول الإرث والتزام العهد، وبذلك نؤمن، وللوفاء نسعى، وكل تجاوز لهذا الإعلان يجعلنا نواجه عشرين نوعًا من السلب والضرر وتعطيل الطاقات، بل والانحراف ربما إذا طال زمن الاختفاء.

ومجموع ما سنسرد من التحليل والتسبيب يشكل درسًا تامًّا فى بيان الارتباط بين الشكل التنظيمى والتخطيط التربوى، ويكشف عن علاقة متبادلة بينهما وتأثير متقابل، وبه ومن خلاله سنعرف خبرًا خفيًّا من أخبار منهجية التربية الدعوية، يقنعنا بضرورة فحص الخطط كلها، تنظيمية أو سياسية أو اجتماعية، وأن نمنع الجزاف والذهاب مع الهواجس أو الاقتباس غير الواعى من خطط الآخرين، إذ الحياة كلها واحدة مجتمعة، إن تنوعت فروعها فإن قاعدة سفلى مشتركة تربط بينها تخضعها لظاهرة الاستطراق الفيزياوية وتجعل التأثير المتبادل حتمًا مقضيًّا، لأن أساس حركات الحياة هو التعامل مع النفوس، والنفوس حساسة شفافة، لامّة وناشرة، تمتص كما تعكس، وتُشَتّت كما تبلور، ويختلف الأداء بحسب النقاء أو الإعتام، والتحدب أو السواء لتنتج، من كل ذلك أحوال تربوية كثيرة جدًّا فى عددها، لكل حالة منها فتواها الخاصة، وتكون الحاجة إلى النسبية فى فهمها وتقدير نتائجها حاجة مؤكدة.

*** فأول خبر رفض المبالغ فى الاصطفاء والذهاب بعيدًا فى الاختفاء:** ما عليه الدعوة من الفكر الشمولى الذى وفق له الإمام حسن البنا ﷺ توفيقًا، وبين عنوانه فى أول الأصول العشرين، حتى أن حركات إسلامية مازالت تؤسس بعد أكثر من سبعين سنة من

صدعه بالشمول تعجز عن أن تواكب شموله وتفهمه، وتظل قاصرة، أحادية الفهم والهدف، أو ثنائية، فتكون سياسية فقط، أو تربوية فقط، أو تعبدية فقط، وفكرنا الشامل لا يجسده ولا يعبر عنه إلا تنظيم متنوع القدرات والطاقات، يستطيع ترجمة الشمول فى عالم الواقع إذا أتيحت له الفرصة وانفتحت ميادين التنافس الحر من خلال عدد كثيف من الدعاة مؤهل لأداء الواجبات المتنوعة التى يتطلبها الشمول، أما الواجهات فإنها أعجز عن أن توفر هذا الشمول التعليمى التدريبى التربوى القادر على تنفيذ عملية تكامل فى الأداء، بسبب منهجها القاصر، كما أن تنظيم الصفوة المركزى يهب أعدادًا من الثقات أصحاب الكفاية أقل مما يلزم لتنفيذ الإصلاح الشامل أو التغيير الشامل، وبذلك نواجه أحد الإشكالين، ووضع كهذا ليس له من حل آنذاك غير تطوير إحدى الواجهات لتقدم فكرًا شاملاً وأساليب تنفيذ شاملة، وهذا رجوع إلى نقطة البداية، والتفاف مرهق من غير حاجة إليه، بل إلغاء لمغزى الواجهات، إذ انعقدت أعراف الدعاة على أن الواجهة كيان صيغ ليكون ناقصًا أوأحادى الهدف والوسيلة، ويكمن خلفها تخطيط عمدى يصدر على القصور، لا اعتقادًا بجدوى القصور، ولكن لتناسب هذه الواجهة أفرادًا من الناس هم أعجز عن تناول الشمول وتصوره وتمثيله، فيرضون بنصف أو ثلث أو ربع، بل وعشر، ونرضى منهم ذلك، فنخترع لهم الإطار الجامع، أو يكون أفراد غيرهم غلب وهمهم الحقائق، إلا قليلاً من صواب أدركوه يوافق ما نحن عليه، فيكون هذا القليل قاسمًا مشتركًا بيننا وبينهم، ونرضى خيرهم القليل، لأننا نستطيع عبر الفنون التنظيمية أن نجعله يتكامل مع قليل آخر من نوع آخر، ثم مع آخر، ليتقوى جانب الشمول الذى تقدمه الجماعة المركزية، وفى ذلك حديث تفصيلى ليست هذه مناسبته، وإنما أردنا الإشارة إلى أن الواجهات لا تطالب بشمول أصلاً، وإلا لبطل مسوغ إبرازها واستمرارها، فإذا اقترنت هذه الحقيقة بوجود تنظيم مركزى نخبوى اصطفائى متشدد الشروط؛ قلَّت أعداد ممثلى الشمول فى الميدان بحيث لا يتم بهم إصلاح عريض، أو تغيير شامل؛ لأن الجماعة المركزية هى المحضن الوحيد الذى يستطيع أن يقدم تربية وتدريبًا ترتقى بهما مستويات الناقصين المنضمين إليها عبر منهجية ذات مراحل متتابعة، وصبر على تسويف المسوفين، ومداراة رفيقة تأخذ بالأيدى، فتنتشل من وهدات الكسل، وتعين على جلاء الشبهات والأوهام عبر حوار ومنطق وإقناع، ولك أن تتأمل حال حكومة الإنقاذ

الإسلامية وأزمتها المتمثلة بوضوح فى قلة العناصر المؤهلة لاحتلال المراكز القيادية فى الدولة أو أدوات السيطرة، كالإعلام والنشاط الاقتصادى والعمل المؤسسى والمشاركة المعرفة الحضارية، فهذا إن حدث فى السودان الذى اختطت الحركة الإسلامية فيه خطة العلن بأوسع مداها، وتوسعت فى العمل الجبهوى المفتوح، فكيف بما يمكن أن يحدث فى بلاد أخرى تختط خطة الخفاء وانتقاء الأشداء فقط؟ لا شك أن الأزمة ستكون أعمق، أو: يستعان بمجموعة ليس بينهم تجانس، ولا يوحدهم فهم مشترك، يلتقطون من مختلف الواجهات والمجموعات والأحزاب الإسلامية. نعم، هم مسلمون، والقاسم المشترك موجود، ولكن ما وراء ذلك من تباين الاجتهاد يُلغِّم الميدان باحتمالات الخلاف والتناطح والتعصب للأسماء والمجاميع، وليس من حركة تنفى هذه الاحتمالات السيئة بهيبتها المستمدة من رسوخ أعرافها وسعة انتشارها وصفاء فكرها وثقلها الميدانى الذى يمنع الهواجس ابتداءً أن تجد لها محلاً فى نفوس الأقران المتنافسين مهما استظلوا بمظلة الإسلام العامة الواسعة إذا لم يكن ثم تخصيص من بعد التعميم، ولم يكن انتقال إلى أساليب وطرائق عمل واحدة وليس إلى فكر واحد فحسب.

* **ومن خبر الرفض أيضًا:** أن من واجب الدعوة: تقديم صورة نموذجية للعمل الإسلامى يراها الناس لتكون الميزان وأداة القياس التى يقيس الناس بها غيرنا ممن هم فى الساحة، فيقارنون بين المثال الكامل الذى نقدمه، والقطع الناقص الذى يستسهله غيرنا، ثم أيضًا: ليرى هذا النموذج أناس لا نستطيع أن نصل لهم مباشرة أو أن نخاطبهم وجهًا لوجه، فينوب منظر الجماعة الشاخصة وفكرها المعلن المنسوب لها صراحة عن اللقاء الفردى والمجالسة، فتتحرك فيهم معانى الإنصاف المركوز فى الفطر السليمة، فيأتوننا ناصرين متبعين مصافحين. ثم أيضًا: ليكون العمل الشاخص الواضح غير المحجوب داحضًا لكل افتراء وتشويش وكذب واتهام يلجأ إليه عدو أو حاسد جاهل. وأيضًا: ليرسخ الاسم المعلن للجماعة فتكون له مع الأيام قيمة معنوية مرتبطة ببطولات أسلفها دعاتنا، ومواقف ثبات، وبذل، وجهاد، ومناقب كثيرة متنوعة، فيزداد الداعية إيمانًا بصواب ما هو عليه، ويلتصق القريب، ويرجع الشارد.

كل هذا العطاء الإيجابى يتوفر لنا من خلال الجماعة المركزية المعلنة، أما التوارى وإنابة الواجهات: فيمنع هذا العطاء المتعدد الأوجه، ويمنح الواجهات هذه المزايا، فتنمو على

حساب الأصل الذى قدمنا فى السبب الأول أنه الأحرى والأحق، فى الحين الذى لا نستطيع فيه التوجيه الكامل للواجهات والأحزاب الأخرى التى نعينها بدعاتنا المبثوثين فيها، وتبقى صورتها دون النموذجية المبتغاة، وتلبث دون سيطرة رقابتنا العاصمة من الهفوات والإغراب والمواقف الهشة أو التهورات المعكرة لصفاء الوقت.

بل يكمن خطر أكبر محتمل جدًّا، يأتى فى صورة مبادرة بعض أصحاب الإحساس الفطرى السليم من قادة الجماعات الأخرى إلى تمثيل الصورة النموذجية وادعائها وتقديمها إلى الناس بدلاً عنا، وسينافسونا على حيازة جمهورنا المناصر لنا، فى الحين الذى تقصر بهم أفكارهم وأساليبهم عن توفير متطلبات هذا المثال النموذجى، فيدعونه إذ هو ناقص، فيكون الضرر المتولد فى الناس المراقبين للحركات الإسلامية ضررًا كبيرًا، يأتى فى صورة إحباط أو ضعف ثقة أو نقد جارح، وربما يكون دفاع هؤلاء الدعاة عن أنفسهم إزاء ظنون الناس الباطلة مقترنًا بغضب واتهام مقابل للناس، فينفر عامة المسلمين نتيجة ذلك، وتحاصر الحركة الإسلامية حصارًا اجتماعيًّا قبل أن يكون حصارًا حكوميًّا سياسيًا أمنيًا، وما ذاك إلا لضعف الأناة عند هؤلاء الدعاة، وقلة صبرهم على ظن السوء وكلام التخذيل الردىء الذى ابتلى به العوام، وهو الصبر الذى نمهر فيه نحن أهل الشمول، ودربنا أنفسنا عليه تدريبًا، بالتحالم وقهر هوى النفس، ثم رسخته فينا المحن المتكررة والسجون الطويلة والظلم المؤلم، بل بالغنا فى ذلك حتى أصبح من نشيدنا المسلى لقلوبنا أن: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون.

* **ومن أسباب الرفض كذلك:** أن هذا التوجه يأتى مناقضًا لنجاح دعوتنا الشمولية فى الوصول إلى امتداد عالمى كامل تحت قيادة واحدة، وهو أمر ثقيل في ميزان العمل العلمانى، بله فى ميزان العمل الدعوى الإسلامى، ومن ثمرات هذه العالمية أن التناصر صار أقوى، والتكافل أعمق. ويقترن وجود أى جزء من أجزاء الحركة فى أى بلد بهيبة تردع الظالم أن يسرف فى ظلمه، كما تتاح عبر العالمية الاستفادة من التجارب، والرأى الاستشارى، وتبادل الخبرات والمهارات، والرفد بالمال والرجال، فى أشكال أخرى كثيرة من أشكال المنافع، إضافة إلى الثقة التى تنغرس فى نفس كل داعية ناشىء جديد أو مؤيد محب حين يعلم أن الحركة التى ينتسب لها ويراها فى نشاطها اليومى إنما هى جزء محلى من كل عالمى ممتد، فيطمئن قلبه، ويبدأ يدرك أنه يتعامل مع حركة لا كبقية الحركات، وإنما هو أمام حقيقة عظيمة، فيستأسر، وتجره الجاذبية العارمة.

إن النمط النخبوى المستخفى لا ينسجم مع هذا العطاء العالمى الوافر الخيرات، وفى هذا النمط تخلف عن توظيف هذا العطاء محليًّا لصالحه، لأن المسارة تمنع إمكانية الانتساب إلى العالمية وادعاء بنوتها، ولن يعرف صلة القربى هذه إلا من ينصت لشرح خاص فى مجلس مغلق، وقليل ما هم، إذ لا يمكن استخدام الوسائل الإعلامية فى الفخر بالعالمية، لأن ذلك ينافى ما اختارته الصفوة من الاختفاء والتوارى، وبذلك تتضح المفارقة الغريبة فى هذا التوجه المتجاهل لعصر العالمية، وينكشف التضاد الذى لم يقصده هؤلاء الإخوة الذين بالغوا، إذ ما ثم إلا نظر تخطيطى قصر به التقليد والاقتباس الجزاف فى موطن يحتاج الاجتهاد، وأول هذا الاجتهاد: إدراك البُعد العالمى، والتجانس معه، والتحرك فى إطاره، والتمتع بعطائه السخى.

* **ومن منطق الرفض أيضًا:** أن العمل النخبوى ربما كان صحيحًا قبل نصف قرن، حيث كان ثقل المحن الشديدة يرهقنا فى كثير من البلاد، وحيث لم يكن العمل الدعوى قد تطور بما فيه الكفاية، وأما إذ نحن نعيش نهاية الربع الأول من القرن الخامس عشر للهجرة الشريفة، وبداية القرن الحادى والعشرين، فإن المبالغة فى الاصطفاء تأتى متناقضة مع القفزات التطويرية التى حققتها الدعوة بحمد الله تعالى فى معظم الأقطار، بحيث أصبحت أقرب بإذن الله إلى التمكين أو المشاركة فى القرار السياسى، مما يستدعى ظهورًا من ناحية، وتواجدًا معلنًا فى الميدان، لنقود جمهور الصحوة الإسلامية قيادة مباشرة تجنى ثمرات بذلنا المتدرج المتواصل الطويل الذى أنضجته البركة الربانية بعد استكماله لشروط المراحل التخطيطية المتتابعة وعبوره الناجح لعقبات التأسيس ثم الانفتاح ثم التوغل والانبثاث والانتشار. ثم من ناحية أخرى: يُتيح أن نرى المؤيد والعدو معًا من أنفسنا قوة، تشجع الأول، وتردع الثانى عن تحديث نفسه برجوع إلى الوراء يمارس معه البطش الأرعن والإرهاب الأمنى الفاشل الذى بدأ ينقرض بعدما ثبت فشله فى حصار العمل الإسلامى وأدى إلى صحوة ضاعفت وجودنا وقوتنا أضعافًا.

ليس هذا مكان الحديث عن معالم تطور الدعوة والمكتسبات التى تحققت فى كل مرحلة، إذ خصصنا لذلك كتابًا خاصًّا، ولكنا نحب الإشارة العامة إلى أن التسلسل المنطقى لخطوات التقدم الدعوى قد وضعنا اليوم فى المرحلة قبل الأخيرة، وقد حققت الدعوة بحمد الله ثورة

فكرية، وتوعية جماهيرية، وخبرات تخصصية. كما أذكت روح الجهاد، واستفادت من أعمال العلماء الذين قدموا جهودًا فردية أحيت المخطوطات العربية ونقلت العلم الشرعى نقلة واسعة ونشرته فى الآفاق حتى دخل مقدار منه كل بيت مسلم، كما استفادت من جهد أفراد آخرين أتاحوا للاقتصاد الإسلامى غير الربوى أن يحتل موضع قدم بعد عدم، كما تأقلمت مع طابع العصر فى العمل المؤسسى، وسخرت الأشرطة السمعية والمرئية والكمبيوتر والإنترنت لخدمة الغرض الدعوى، ونتج من كل ذلك تطور نوعى لا يليق أن تستلمه أياد رخوة فى الواجهات، ولا أن تحتفل به آمال عائمة غير راكزة تحملها الجماعات التى لم يعركها ويفركها الشمول، وإنما يجب أن يكون هذا الاستلام والاحتفال من قبل الصفوة نفسها، بالاسم الدعوى القديم الراسخ أو باسم معلن على الأقل، وتخلف أحد هذين الشرطين يهدر الاستفادة الحقيقية من معطيات هذا التطور، ويتحول إلى مجرد مداعبات شعورية، ودغدغات عاطفية، لا تؤثر فى الواقع. وإحالة هذا الواجب فى الاستفادة إلى نفس الصفوة يؤدونه باسم واجهة محدودة أو جماعة ناقصة يجعل أحد الشرطين غائبًا، ويتقلص النجاح.

* **ومن حجج الرفض أيضًا:** ضعف منتظر فى الأداء التنفيذى داخل مجموعة الصفوة، لغياب التكامل فى نوعيات العاملين، وهذه الالتفاتة تحتاج تأملا عميقًا فى طبيعة النفس البشرية، وطبيعة تكون المجتمعات، وطبيعة حركة الحياة، والشرح لكل ذلك يطول، وليس هذا سياقه، وإنما نشير إشارة عامة إلى المغزى العظيم فى قول الشرع: كل ميسر لما خلق له، فهذه حقيقة كبيرة من حقائق الحياة إذا تجاوزها الدعاة اضطربت أحوالهم. ذلك أن العمل الدعوى الشامل الكامل كثير الأجزاء والأنواع والمفردات، وأكثر من نصفه له طبيعة تنفيذية لا تحتاج الذكاء الخارق ولا الجلادة والقوة، وإنما يؤديها دعاة أقرب إلى السذاجة ربما، وبعفوية مسترسلة يقودها الإيمان الفطرى البسيط، وفى أدائهم إحسان وتجويد وإتقان ليس من السهل أن يكون على مثله الذكى القوى الشجاع، بل ربما تعجز النخبة عن هذا الأداء، إذ لم تخلق له، وإنما خلق أولئك، ليزدادوا أجرًا، ولئلا يحتكر الأذكياء وأهل الدثور الدرجات عند الله، فجعل الله تعالى لكل صنف دورًا هم أليق له وأنسب، فإذا انعزل كل عفريت من الأنس مع أمثاله فى نادى العباقرة: فمن ينفذ هذه الحلقات المكملة فى سلسلة الأعمال الدعوية؟

كلا، بل للعنصر المحدود مكانته، ويجب أن يقف بجانب المبدع، وجدار الدعوة فيه طابوق من ذهب، ومن فضة، ومن نحاس، ومن حديد، وفيه قوارير، وقصر الذهب قد تميعه وتسيله الحرارة الشديدة رغم كونه أثقل من الحديد أربع مرات، لا يحتمل الحرارة فيذوب، كما أن قلعة الحديد الصلدة تفتقد البريق واللمعان والجمال، وإنما قامت الفنون على مذهب تجانس الألوان وتعددها وتدرجها، وكذا تقوم الحياة على اجتماع درجات الناس.

يصطف عندنا فى الجماعة المركزية الظاهرة: الفلاح بجنب الطبيب، والعامل بجنب المهندس، والطالب مع الأستاذ، والمرأة خلف الرجل، والذكى أمام المحدود، والشجاع يصافح المتردد، والقوى يدفع الضعيف، والمسرع يسحب المبطئ، إذ كل ميسر لما خلق له، لكن البديهيات تغيب أحيانًا، ويذهل العباقرة عن أسرار جريان القدر الربانى وطرائق وروده، وفى تاريخنا الخاص والتاريخ الإسلامى العام قصص عجيبة وأحداث غريبة تكشف روعة توزع الأقدار والأدوار، وفيها موعظة تنهى عن الزهد بانضمام الأشعث الأغبر ذى الطمرين، وترحب بمن يتقن حرفين، وأما ما سلف من الحرص على كل ذى قوة فى الشخصية ذكى، فى المنطلق والمسار أو فى هذا الكتاب، فإنما هو تفضيل لا نجادل فيه، ويُفهم بالحُسنى، أو هو وصية مرحلية عند التأسيس، لما فيه من أهوال، وأما ما بعد ذلك فإن باب الدعوة مفتوح لكل من أقبل بإخلاص، وكم من دعاة فى آخر الصفوف لا يفتقدهم أحد إن غابوا - قدموا خدمات دعوية متنوعة، وسطروا قصص شجاعة، وإذا خلصت النوايا - بورك ففى أعمال أصحابها، ولا يعرف هذه الحروف من كتاب الإيمان ومدونة القدر وسفر البَرَكة غير منغمس فى البُرْكة، بُرَك البذل الدعوى.

* **وفى سياق المنطق الرافض:** يبرز ضعف التكامل التربوى كمظهر سلبى آخر من سلبيات التنظيم المحدود المصطفى. ذلك أن تجارب الأيام أقنعتنا بأن الآثار التربوية لا يقدمها المنهج التربوى فقط، وإنما تقدمها أيضًا: المعيشة المشتركة فى المجتمع الدعوى الواسع، إذ هناك تأثير متبادل بين كل داعية والدعاة الآخرين، هو يؤثر فيهم بمنظره ومخبره وقوله، وهم يؤثرون فيه بالمقابل. **ومن المظاهر الغريبة فى الحياة:** أن الأمى، والأقل ذكاء، وأصحاب المهن الشاقة يكونون فى الأغلب أقرب إلى الصفاء والإخلاص والتواضع والبذل والنجدة وأخلاق المروءة من جيل المثقفين وأصحاب المهن الرفيعة وأهل الأموال، فينتصب أولئك

قدوات لهؤلاء فى هذه الخصال الحميدة عبر الاختلاط اليومى والاحتكاك المباشر والعيش المشترك. لكن الطائفة الثانية تقدم للأولى وعيًا وفكرًا هى أمهر فيهما، وتخطيطًا، ونظرًا إستراتيجيًّا، ورؤية مستقبلية، وهذا من التوزيع القدرى الربانى لأنواع الكفايات كما وزع أرزاق المال، وهو من أصداء الاستعاذة العمرية من جلد الفاجر وعجز الثقة.

كما أن الشباب أكثر جدية وفورة وحيوية وحماسة من جيل الشيوخ، وتسرى حرارتهم إلى جميع أفراد الجماعة، بينما يبذل الشيوخ حكمة وأناة وحلمًا وتقديرات واقعية وإهابة بدرس كل شأن برويّة قبل الإقدام عليه، فتتعادل الأمور داخل الجماعة، وتنتج من ذلك تربية نفسية متعادلة متوازنة.

كما أن القروى والبدوى يمثلان الوفاء والكرم ويجسدان معانى الفطرة السليمة وبراءة القلب من الدغل وظنون السوء فى الحين الذى يُقدم أبناء المدن الأنماط المدنية والحضارية، واستخدام المخترعات الحديثة، ويؤصلون لمعانى الإدارة والمنهجية.

وكل هذا العطاء المتقابل يحرسه علم الشرع الذى يصدع به العلماء من الدعاة، وتنتج من كل هذه الموارد المتباينة حقيقة تربوية عظيمة المقدار تعدل فى حجمها حصيلة المنهج التربوى أو تفوقه، وبها يظهر معنى التكامل التربوى الذى بشرنا به، لكن التوارى والاقتصار على النخبة يكاد يعدم هذا العطاء المتكامل ويستبدله بتربية أحادية الوصف، ربما تحقق مدًّا فى الوعى والفكر والتخطيط وأعمال العقول، لكن يعكر عليها جزر فى العاطفة والروحانية وأعمال القلوب.

بل خذوه قولاً صريحًا صادقًا ليس للجزاف فيه نصيب: إن الطبقة القيادية العليا نفسها محتاجة إلى هذه التأثيرات الإيجابية الصاعدة إليها من طبقات الأتباع الدنيا، بل من جدد ما زالوا يرضعون الوعى فى حلقات الابتداء، لأن القادة بشر، ويعترى قلوبهم التقلب، ويوسوس لهم الشيطان، وربما يلينون لضغوط الأيام أو إغرائها، ولابد لهم من هذه المعيشة الجماعية لتدوم جذوتهم متقدة، وتظل قلوبهم مخبتة وأفئدتهم أبعد عن اليبوس.

* **ومن جدل الرفض:** أن الدعوة مكلفة بتقديم قيادات عالية المستوى إلى الجمهور ليتم الاقتداء، وليتحلق الأخيار حول الزعامة وتحت الراية المرئية الخافقة فى الساحة، فإذا كان هؤلاء القادة مختفون فإن هذه العملية الجماهيرية ستضرب وتضعف جدًّا.

والذى وجدنا عليه الدعوة فى تاريخها المبارك: أن قادتها انتصبوا قادة لجمهور المسلمين كما انتصبوا قادة لخاصة الأعوان، وأعلنوا عن أنفسهم، وخطبوا، وألفوا، ونزلوا إلى الشارع، وصعدوا المنابر، وجابو الآفاق، وعقدوا المؤتمرات، ودخلوا على الحكام واعظين، وكل ذلك باسمهم الصريح ولقبهم الدعوى. **وأول من فعل ذلك:** المؤسس الإمام حسن البنا ﷺ ، وحذا حذوه السباعى فى سوريا، والصواف فى العراق، وعلى طالب الله فى السودان، رحمهم الله، ومحمد عبد الرحمن خليفة فى الأردن، مد الله فى عمره، ثم سار خلفاء الإمام بسيرته، وقاد الأستاذ الهضيبى ﷺ الجماعة علانية، ثم الأستاذ عمر التلمسانى ﷺ . ولنا درس شاهد فى مزايا ظهور الأستاذ محفوظ النحناح صادعًا بالثوابت، ونزول الأستاذ عبد المجيد ذنيبات إلى الشارع يمنع التطبيع، وتبشير الأستاذ فتحى يكن بالأفكار، فهل يصح أن تكون الدعوة فى بلاد أخرى يتيمة لا أب لها يفخر بها ويتغنى بمحاسنها ؟

نحن لا نقول: إن حركة التاريخ تسببها الزعامات الملهمة فقط، التى تتمتع بجاذبية تؤهلها للقبول الواسع لدى الناس، والذى نعتقده أن التحولات الكبيرة تصنعها عوامل كثيرة، لكن وجود الزعامة المتقدمة للصفوف، الحاضرة فى كل المشاهد، الهاتفة بالحق الصريح: هو من أعظم وأهم هذه العوامل، ويصح فى فقهنا الدعوى أن تختفى هذه القيادة، ولكن عند التأسيس، بسبب أمنى، ولتحاشى سلبيات أخرى، أو تغيب نفسها أيام الشدائد، أو أن يوجد فى بلدها حاكم جبار من ذرية فرعون، وأما حيث تكون الأجواء الحرة فإن الأصل الظهور، والتوسع فى التجميع، وقبول جميع المسلمين فى الصف، قويهم وضعيفهم، من أجل أن نحشد حشدًا عدديًّا كبيرًا هو لازم لعمليات صعودنا فى البلاد التى تنتهج النهج الديمقراطى بخاصة، حيث يكون ضعيفنا الساذج المتواضع إذا نطق بمعانى الدعوة: خير وأعز وأكفأ وأطهر وأفصح من ألف علمانى فى الساحة وهبت الدعاية لأحدهم بريقًا، وسريرته داكنة، وضخمت وسائل الإعلام صورته، وحقيقته جوفاء.

* **وسبب آخر للرفض** يشهد به التعقيد النفسى الذى يلوث عملية تبعية القياديين المبثوثين فى الواجهات والأحزاب الأخرى والمؤسسات لقيادة مركزية خفية. وينتج هذا الخلل فى النفس بخاصة إذا تطور التابع، وتوسع فى عمله، ونجح فى استقطاب عدد كبير حوله، أو أنجز نتائج تسجل فى عداد المناقب والمآثر المميزة، فإن الزهو سيكون قريبًا منه جدًّا آنذاك،

وتظهر فى لغته كلمة أنا، ورطانة تنافى لهجة المؤمنين، فيحاول الاستقلال عن الأصل، ويسهل عليه قطع الجذر الأسفل إذا رأى الثمرات عالية، فتموت شجرته فى الموسم القابل، ويكون قد خسر نفسه وخسرناه. ولم يجرؤ مثل هذا على الاستقلال إلا بسبب أن سمعة القيادة المركزية لم تتطور بموازاة تطوره هو لتكون مهابة مطاعة مسيطرة، وإنما أبعدها الاختفاء عن أن تملأ أعين الدعاة والناس، وأن تنسب لها المنجزات، أو تكون شريكة فيها على الأقل. وتظل الأيام والمواسم تنحت من ذكرها، حتى يضمحل، وتستروح لذلك ربما تواضعًا أو بتأويل آخر، حتى تتخدر، فتأخذها سِنة، فيصيح الواجهى والحزبى والمؤسسى صيحات مركوزة فى أعماق رءوسهم من يوم اشتهروا، فتجفل القيادة الغائبة جفلة الغافل أو النائم إذا انفجرت بجانبه قنبلة، فتحاول الاستدراك والأمر والنهى والنقض والإبرام بتعجل، فلا تجد لها مصدقًا، أو بها مؤمنًا، ولات حين ترميم.

ينبغى أن لا تذهب بنا المثاليات والرموزيات بعيدًا، وأن نوقن أننا فى محاولتنا الدعوية إنما نحاول أمرًا صعبًا لا يمكن الجزم بالضمانات فيه، لأننا نتعامل مع نفوس بشرية، والشيطان حى، فنحن نحسن الظن بالدعاة، وبهذا أمرنا الشرع، ونوزع الدعاة على ثغور الدعوة ومنحهم الألقاب التنظيمية تغليبًا لهذا الظن الحسن، وتفاؤلاً وتجريبًا، عسى الله أن يوفق ويرحم. أما أن نعطى إخوتنا وكالة عامة مفتوحة دون حساب ورقابة ونقاش وفحص فأمر فيه نظر، إذ يخطئ الوكيل ويصيب، وإذا كان الرقيب يتشبه بالنساك القدماء ولا يضع ختمه وتوقيعه وصورته على وثائق البناء علانية وبشهود فلربما يخرج البناءون من نوافذ البناء ليسجلوه لدى دائرة البلدية والشهر العقارى باسمهم حتى ولو سيطر الرقيب على الباب، وقد يخرج أحدهم من نافذة عليا بلا مبالاة، مصرًّا على الهرب، فيسقط، فيموت فى شبه انتحار.

وهذا صحيح أيضًا فى التحليل المعاكس الذى يوفر دليلاً آخر للرفض، **فمن ناحية طبيعة النفس البشرية:** إن لم تشعر طبقة القياديين المركزيين المختفين أن شخصياتهم الخاصة وأسماءهم ملتصقة بكل عمل ونجاح يتحقق، واسمة له بوسمهم: فإن همهم ستضعف تدريجيًّا، إلا من رحم ربك، إذ تلك هى طبيعة النفس، تحب الثناء والتشجيع ودعاء الآخرين

لها وتقديمهم الشكر وبذل الحمد، ولعل فى قوله تعالى على لسان المؤمنين: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان] ، مسحة خفيفة من هذا المعنى غير ظاهرة، إذ الأليق أن تفسر رغبة المؤمن بإمامة المتقين بحرصه على نيل أجر الإمامة وثواب تأسى الآخرين به، وكونه رائدًا سبق إلى المقدمة. وفى قول النبى ﷺ: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله» إيماءة أجلى إلى حق المؤمن فى انتظار الشكر، **لكن قول الإمام الغزالى أصرح حين قال:** «لولا الرياء لذهبت تسعة أعشار العلم»، ومثل العلم: أعمال إسلامية أخرى، يفترض أن فاعليها وممارسيها أقرب إلى التجرد وأبعد عن شوائب النيات، ولكن تسعة أعشار العلماء يؤلفون ويصنفون الدواوين النافعة بعيون ترنو إلى نعيم الآخرة وحسن الجزاء، ولكن بآذان منتصبة لالتقاط كلمات الإعجاب والتقدير التى سيقولها من يقرأ إنتاجهم، وتلك شعبة من الرياء، لكن جعلها الله تعالى سببًا لعمران العلوم ووقف الأوقاف وبذل الخيرات، ولولاها لاضمحل العلم وقلَّت المساجد والمدارس الشرعية. وقضية قيادة المسلمين ينبغى أن تحلل وتفهم ضمن هذا السياق، فإن القيادى إن طال اختفاؤه وذهل المسلمون عن تعبه وسهره وكده لفكره وإنفاقه لصحته وأوقاته وتفريطه فى حق نفسه وعياله، ثم لم يسمع حثًّا وشهادات تشهد بأدائه ما عليه: فلربما يضعف عن العطاء بتدرج غير مرئى لا يلتفت إليه نفسه ولا الذين من حوله، ويجنح إلى البرود والفتور، وهى سلبيات تجر إلى سلسلة من العيوب فيما بعد، **أقلها:** سرعة غضبه إذا انتقده ناقد، ويكون حساسًا جدًّا لا تستطيع أن تمسه بزنبقة بيضاء أو بريشة طاووس، ولا أن تمسحه ولو بمسك أو عنبر، وما ذاك إلا لتخلف رقم فى معادلة القيادة يتمثل فى وجوب تمتع القيادى بمنظره بين إخوانه وتصدره ومشيه قبل الصفوف وسماعه الدعاء، حتى ولو لم يسمع كلمة الشكر الصريحة، وليس كل هذا من تهوين أمر الرياء والغفلة عن دونيته وانخفاض رتبته ورتبة مقترفه، ولكنه تذكير من الغزالى ومنا بحقيقة من حقائق الحياة وبسلوك شائع مرجوح لا ينجو منه إلا أشداء المؤمنين ومن يرتقى نسبهم إلى أبى بكر الصديق رضي الله عنه، وهم قلة نادرة قدرها الغزالى بعشر العلماء، أى: وأيضًا: عُشر المنفقين، وعشر الدعاة، وعشر القياديين، تطبيقًا للمعادلة الغزالية الرياضية التى هى من الدرجة الرابعة ولا يفهمها حق فهمها غير ألمعى مجرب طال انغماسه فى يوميات العمل الدعوى عشرات السنين، وشهد نمو ونضوج ونهاية عدة أجيال من الدعاة.

وقريب من هذا ما تمناه عمر أن لو كان ابنه عبد الله أجاب رسول الله ﷺ لما سأل عن الشجرة التى تشبه المؤمن، فقد «استدل به مالك على أن الخواطر التى تقع فى القلب من محبة الثناء على أعمال الخير: لا يقدح فيها، إذا كان أصلها لله. وذلك مستفاد من تمنى عمر المذكور، ووجه تمنى عمر رضي الله عنه ما طبع الإنسان عليه من محبة الخير لنفسه ولولده، ولتظهر فضيلة الولد فى الفهم من صغره، وليزداد من النبى ﷺ حظوة» (1).

وقريب من هذا أيضًا قول ربيعة الرأى: « لا ينبغى لأحد عنده شىء من العلم أن يُضيِّع نفسه».

قال ابن حجر: «ومراد ربيعة أن من كان فيه فهم وقابلية للعلم: لاينبغى أن يهمل نفسه فيترك الانشغال؛ لئلا يؤدى ذلك إلى رفع العلم. أو مراده الحث على نشر العلم فى أهله لئلا يموت العالم قبل ذلك فيؤدى إلى رفع العلم. أو مراده أن يشهر العالم نفسه، ويتصدى للأخذ عنه لئلا يضيع علمه. وقيل: مراده تعظيم العلم وتوقيره فلا يهين نفسه بأن يجعله عرضًا للدنيا. وهذا معنى حسن، لكن اللائق بتبويب المصنف ما تقدم» (2). أى البخارى الذى أخرج قول ربيعة.

أى أن ابن حجر يُرجّح أن أحد المعانى المرادة من قول ربيعة: أن يشهر العالم نفسه، فهى شهرة تُراد لإتقان المهمة العلمية والدعوية، وليس لها مع الرياء علاقة وإن أشبهت الرياء أو صرعت قليل الإخلاص فأدخلته فى الرياء، والله العاصم.

هذا إذا كان صف الأتباع نقيًّا، وكان منهم إنصاف وعدل، وفيهم خشية لله تعالى، بحيث يبقى موقفهم حياديًّا، لا يجرحون، مثلما أنهم لايمدحون، وأما إذا كان فى الصف مشاغبون تعريهم الوساوس وتسهل عليهم الغيبة: فإن الضرر يكون أكبر، ذلك أنهم سيلمزون المطوعين فى صدقات القيادة، ويكيلون لهم تهمًا ربما، لأنهم لا يرونهم ولا يميزون بذلهم الصامت، فتضيق صدور المظلومين، وتحبسهم عن مواصلة الإنتاج صدمات موسمية مؤلمة، ويضع المرتاب فى قلب كل قيادى جمرة، فيتمنى إذ تلذعه أن تسعفه عينه بدموع تبردها أو

(1) فتح البارى 1/ 156.
(2) فتح البارى 1/ 188.

تطفيها، ولكن الإباء يمنع، وخلق الشمم يمسك مآقى الحر أن تدمع، حتى إذا تورم كبد القيادى والتهب وبلغ الحزن مداه: دخل الشيطان على الخط، يعظ القيادى بتضييع نفسه فى الزحام، عبر بحث علمى أو غرق فى تجارة، أو ينصحه بعفاف وانزواء وتبتل وتفرد على قمة جبل أو أطراف غابة، هربًا من قوم آخوه، ثم هم لايرحمون ولا يشكرون.

*** ومن الأسباب فى اطراح الخصوصية ووجوب الشمولية فى التنظيم:** أنه لا أحد يدرى أين تكمن استعدادات الإبداع الخفية، وفى من حلت المقدرة على أداء دور قيادى إذا نضجت الظروف المحيطة وتوفر المحفز، والتقارير الميدانية تشير كثيرًا إلى بروز مفاجئ لعنصر مغمور، كان قابعًا فى المؤخرة، فتحدث حادثة تهزه أو موقف يثير إعجابه، فينتفض، فإذا هو فى المقدمة، وتظهر منه مهارات ما كان أقرانه ومربوه يظنون تحليه بها، ولولا أنه يوم ضعفه وانسحابه كان محاطًا ببعض النشطين لما تيسر له هذا الصعود، لكنها أحاسيس ومحفزات ظلت تمو فى الحقيقة قليلاً قليلاً، فى تطور بطىء أتاحته شمولية التنظيم، حتى إذا تضخمت كمية التأثر الإيجابى: طفح الخير وانفلقت البذرة وانشقت التربة، فى سياق طبيعى يوافق سنن الحياة، لكن الذى ليس عنده علم التربية يظن أن التحول كان مفاجئًا، والتجارب تشهد أن ذلك كان متوقعًا، إنما كان الظرف يحتاج الحادثة الهازة التى تكون مثل صعقة التفجير أو تحريك الزناد، كالبذرة التى انشقت عن خضرة ولبثت تنتظر رعدًا يكسر التربة التى تغطيها، وبرقًا يسمدها، وغيثًا يرويها، ولذلك يجب أن تفتح أبواب تنظيمك لكل مسلم سوى تشهد له القرائن بصدق التوجه، فإنك لا تدرى لمن سيوهب التوفيق، وأما الحرص على النخبة فقط والتقاط الصفوة فحسب: فمنهج يضيق عليك النمو القيادى، ويزهدك فى أناس ربما أتم القدرالربانى تدوين أسمائهم فى سجل القياديين، ولكن الملائكة لم تدفعهم بعد إلى مواضعهم، لحكمة خفية علينا، وتسلسل مرتبط بزمن، ولكل صعود كتاب، كما أن لكل ميلاد وأجل كتاب، والإذعان لهذا المنطق قاعدة من قواعد الإيمان تشير لها الآيات، كما أن التسليم بوجوب الشمول التنظيمى ميزان من موازين الوعى تدلى به فلسفة التاريخ الدعوى، والقول بأن هذا المنطق يسرى على هؤلاء الضعفاء حتى فى الواجهات أيضًا وإذ هم فى الأحزاب الإسلامية الأخرى إذا بثثناهم فيها – قول لا يصح؛ لأن تنظيمنا الشمولى يقف خلفه فكر شمولى أيضًا، فينتجان قياديًّا شموليًا، ومحركات الاستيقاظ والنهوض والصعود فى تنظيمنا

تمتاز بالقوة المناسبة لهذه التربية القيادية، تبعًا لتربيتنا الشمولية ولمواقفنا الصلبة وأهدافنا الكبيرة وامتدادنا التاريخى الضارب فى العمق، وانتشارنا المكانى الواصل جميع القارات وأبعد الآفاق، وليس كذلك محيط الواجهات، إذ المحفزات هناك أضعف، بسبب أحادية الفكر أو لين المواقف أو تواضع الأهداف أو حداثة النشأة أو القصور عن العالمية.

بل جرى عرف الدعوة أن نذهب لأبعد من هذا بأن نفتح أبوابنا لكل تائب من رجال الأحزاب العلمانية إذا أدت فراستنا إلى تصديق توبته وأفادت القرائن بعزمه على استدراك ما فرط فيه من أيام غفلته الخالية، ذلك لأننا عبر تحليلنا وفهمنا لتاريخ العالم الإسلامى المعاصر نوقن بأن معظم المسلمين الذين نشطوا ضمن التيارات الوطنية والقومية بعيدًا عن الالتزام الإسلامى إنما هم ضحايا تربية مستوردة فرضت عليهم، وتم تشكيل أفكارهم وعواطفهم عبر إعلام قوى مسيطر جاثم بالقوة غسل أدمغتهم وقلوبهم، بل لا نفهم قضية بعثى خانق للحريات أو شيوعى صريح بالإلحاد إلا بهذا الفهم أنهم كلهم ضحايا، ولذلك نفسح المجال فى صفوفنا لكل تائب منهم يلتزم الصلاة والعفاف والحلال، ويمنح الولاء لدعاة الإسلام، مهما كانت سكرته الأولى طويلة وقبيحة، فإن الإيمان يجب ما قبله، ومن واجبنا أن نأخذ بيده وننتشله من الوهدة، وأن نتيح له أن يخدم القضية الإسلامية بمثل ما خدم به القضية العلمانية أو أكثر، لعل الحسنات يذهبن السيئات، ونؤاخيه بإخلاص، ونقدم حسن الظن، ولا نخاف من ذلك، ولا نخضع لوسوسة تحاول إقناعنا بأنه يتجسس، أو لم يتمحض، أو يطلب حماية، لأن مذهبنا هذا قائم على تجربة راسخة أقنعتنا بأن الجماعة أقوى دائمًا من الفرد، وأنه إن كان يغشنا فلن يتمكن من إحداث أذى بالغ، إنما هى وخزات فحسب، وتبقى الجماعة سائرة بتمكن وسيطرة وبخاصة أننا نملك سلمًا متدرجًا لطريقة العضوية، يبدأ به الوافد إلينا بحقوق محدودة، ثم نصعد به رويدًا رويدًا.

والدرس الكامن فى ذكر هذه الحقيقة حول سعة الصفوف الدعوية واحتوائها للتائب بجنب النقى يشير إلى ضد مذهب النخبوية الاصطفائية التى تشترط النقاء التام وبياض سجل الداعية منذ النشأة والفتوة، والقول بأن النخبة يمكن أن تضم مثل هذا التائب إذا كان قوى الصفات قول فيه مجازفة، لأن المحضن التربوى فى النمط النخبوى السرى يتقلص جدًّا، ولا يقدم تربية متكاملة لهذا التائب وإن كان يمده بخبرة عملية وافرة، لكن نمط الانفتاح

الشمولى الذى ندعو إليه يقدم هذه التربية لهذا التائب، لأن سعة العدد، والأعمال الظاهرة والنشاط المشترك وتبادل التأثير التربوى بين الدعاة بعفوية مسترسلة، كل ذلك يجعل التربية أسهل والأخلاق أعمر والعاطفة أعلى والإيمان أعمق.

* **ويظل الرفض يستند إلى أسباب أخرى، من أهمها:** أن الالتزام الشرعى فى الواجهات والمؤسسات يكون أقل مما هو فى التنظيم الأصلى، لطبيعة تكوينها التى توافق غرضًا محدودًا تنفذه بواسطة أعضاء هُم أو زوجاتهم دون مستوى الالتزام الكامل، كسفور الزوجة مثلاً، ولا تحثهم بيعة أسلفوها تأمرهم بالطاعة فى السراء والضراء، ومن ثم ينفتح باب التأول فى الواجهات لأكثر من المدى الذى وقف عنده دعاة الأصل، ويستمرئ الواجهى الترخص حتى يفرط، ربما، فيتولد محيط ينقل العدوى إلى مبعوثينا من الدعاة إلى تلك الواجهة أو المؤسسة يمنعهم من الإنكار على النقص أو اللين، إذ الواجهات لاستيعاب أنصاف المسلمين، والأثلاث، والأرباع، ولأصحاب قلة التحمل والهيبة من الصراع وضرائبه، ولمن تتوقد همته لكن سفور زوجته يمنع انضمامه لنا، فينحت صمت هؤلاء على العيب الذى يرونه من مخزون الحساسية الإيمانية الذى غرسته فيهم التربية الدعوية، ومع توالى الأيام تصبح ردود الفعل عندهم لمظاهر النقص لدى الواجهى أضعف، بل يكاد أحدهم يتخلق بخلق المداهنة باسم المداراة، فتتشوه الصباغة الشخصية لدعاتنا، ويخبو نور فى وجوههم أضاءته روح التحدى والجهاد، وأذكته خطواتهم مع الدعاة الكمل نحو المعالى وفق منهجية التربية الدعوية الآخذة بالعزائم، الغارسة لمشاعر العزة. هذا إذا كان الضعفاء الذين يمثلوننا فى الواجهة قد آوتهم صفوفنا من قبل وخضعوا لتربيتنا المتشددة، فيكون النحت من الفضائل، وأما إذا كنا نقصر عضوية الجماعة على النخبة، ونسد الأبواب بوجه من نتهمهم بالضعف وقصور القابليات، ونرسلهم إلى الواجهات والمؤسسات ابتداءً: فلا يكون ثمة نحت ولا استهلاك، إذ لا مخزون أصلاً، وإنما تكون طبيعتهم رخوة منذ النشأة الأولى، وتكبت الأهداف الواجهية الصغيرة طموحاتهم الكبيرة التى أيقظتها فيهم لذة البداية، ويتم ترويضهم وتدجينهم من حيث لا نشعر نحن ولايشعرون، لأن فقه إنشاء الواجهة مبنى على الترخص وقبول المترخصين، أو يغلب طموحهم محاولات الترويض، لنقاء الجوهر المركوز فى قلوب المتهمين زورًا بالضعف، ولمعرفتهم خبر المعالى من خلال المطالعة إن أخرستنا تأولات النخبوية عن إخباره به. وحين

يستبد بهم اليقين بأننا لا نشبع تطلعاتهم، ثم لا يجدون سلوتهم فى دارنا أو فى دار الضيافة التى أحلناهم إليها - يهجروننا نحو الجماعات الإسلامية العنفية المتهورة وتبدأ قصة طويلة وحلقة مفرغة من المآسى والمشاكل والسجون والدماء، ويبدأ الإعلام يزمجر بمقولات مكافحة الإرهاب والأصولية، فننشغل من حيث أردنا الراحة، ونكون قد غذينا مصادر التطرف بوهم الاقتصار على الصفوة، وهذا لوحده درس تجريبى لو وعاه دعاة النخبوية لكفاهم، ولعدلوا عن وهمهم، ثم هو درس لو وعته أجهزة المخابرات المحلية والعالمية لعرفت أن إتاحة المجال لتنظيمنا الشمولى ليعمل وينشط بحرية هو أنجح حل لمشكلة التطرف والعنف، بما لنا من مفهوم حضارى وسياسات موزونة، وإن امتازت مواقفنا بالحزم ومطالبنا بالشدة، تبعًا لبعد العلمانية عن صريح القرآن، لكنهم قومٌ لا يفقهون.

ويوجد فى علم الإدارة وعلم الحرب فصل يسمونه «القرارات المهلكة» وكأن قرار الاكتفاء بالنخبة ينتمى إلى هذا النوع، وفى اليوم الذى تتخذ فيه الجماعة خطتها الاصطفائية: تكون قد أعلنت أيضًا ميلاد الجماعات المتطرفة.

والاستطراد يفيد بأن التطرف ولد فى كل بلد ابتلى به يوم اتخذت المخابرات قرارها المهلك بمحاربة دعوتنا الشمولية وتجفيف منابعها، **وقول قائلهم:** إن الجماعات المتطرفة قد خرجت من عباءة الإخوان: قول صحيح فى أصله، لكنه مزور محرف فى لفظه، **والصواب:** أن الجماعات المتطرفة أخرجت عن عباءة الأخوان، أى: أن جيل هؤلاء الشباب المخلص المتحمس الشجاع منعته المخابرات أول شبابه أن ينتمى إلى الإخوان، للحصار المفروض، فتسيّب، فلما استووا على أشدهم رجالاً: وجدوا فى التطرف تفريغًا لطاقاتهم المكبوتة، ولو كانوا سمح لهم بالاستظلال تحت عباءة الإخوان لرفلوا بالوعى وبفقه الموازنات القرضاوية والمنهجية المتدرجة ذات المدى البعيد، لكن المخابرات تتخبط، والحاكم الذى يأمرها أحد اثنين: إما أن يكون مخلصًا يوازينا فى الكفاءة والحق، وعندئذ لا مسوغ لخوفه من مطالبتنا بأن يكون الانتخاب الحر القاضى الفيصل بيننا وإياه، كما تفعل جميع الأمم حتى عباد الوثن والبقر، إذ سينافسنا من موطن الرجحان، ومعه الأموال وأجهزة الدعاية ومناهج التربية المدرسية وهيبة السلطة وطبيعة أكثر الناس فى طاعة الرؤساء، ونحن الفقراء فى خندق الحرمان والتواضع، فلماذا الوجل؟ أو يكون الحاكم ظالمًا أو مصرًّا أو سارقًا للأموال العامة أو

ضعيف الكفاية، فيكون دعاة الإسلام أحق بالحكم منه، وتكون مطالبنا سائغة، لكنها خطة اليهود فى استثناء العالم الإسلامى، والعربى بخاصة، من الاحتكام إلى الأعراف الانتخابية واحترام حقوق الإنسان وتمتيع الناس بالحرية، مما يجرى لا فى الغرب فقط، بل فى أمثال الهند والفلبين وتايلاند وفى عمق غابات أفريقيا، وما ذاك إلا لحماية إسرائيل من احتمالات إحياء دعاة الإسلام لروح الجهاد إذا حكموا.

* **ويحسن أن نتطرق إلى شرح علاقة خفية جدًا** بين المفهوم الحضارى عبر الممارسة المعرفية الإسلامية، وبين التطرف، وأساس ذلك: أن الفحص الدقيق يُبدى وجود عاطفة رابطة بين الأديب والفنان والمفكر من جهة، وبين الجمهور المتلقى لإنتاجهم، تزداد تأثيرًا كلما اقترب هؤلاء من جمهورهم وخالطوهم وميزوهم وعقدوا صداقة معهم، وقد يصل التأثر إلى درجة الوله والهيام، بحيث يستأسر الجمهور لشاعر أو رسام أو خطيب. فإذا كان انتساب هؤلاء المعرفيين إلى الجماعة الشمولية واضحًا: كان اعتقاد الشمول فى تمام القوة عند المعجبين التابعين، كنتيجة ملحقة بالفن المثير للمتعة أو الأدب الرافع للمعنوية أو المدغدغ لأحاسيس الفطرة. أما إذا كان انتسابهم المعلن لا يعدو جمعية تخصصية أو واجهة قاصرة فإن النتيجة الملحقة لا تعدو قدرها المتواضع الهزيل المقترن بالهدف الأحادى الذى قامت من أجله العصبة الأدبية أو النادى الفنى أو الرابطة العلمية، أو ما قارب ذلك، ويبقى الجمهور ماشيًا نحونا على استحياء، ليس بالفوَّار المنتفض المتحدى للأسواء المستلذ بالتضحيات. ومن ظواهر الحياة: أن الفنان والأديب ومعظم المعرفيين يحتاجون وقتًا حُرًّا للتأمل هو من شروط الإبداع، ولا يستطيعون تحمل مشقة العمل القيادى التنظيمى وما فيه من متاعب الاجتماعات الطويلة والسفر والتفتيش الميدانى، ومعنى ذلك: أن التنظيم النخبوى سيزهد فى وجودهم داخله، ويحولهم إلى المؤسسات، فيضعف تأثيرهم، لضعف الهدف الكامن خلف العاطفة التى تربطهم بجمهورهم. وهذا التحليل يوجب أن نجعل تنظيمنا شموليًّا، فيه مكان واسع لكل مسلم، سواء من كانت له مشاركة فى العملية القيادية التنظيمية وأداء الواجب السياسى أو لم يكن، ويشهرون انتماءهم، فإذا أبدع أحدهم فى جانب معرفى: كان ذلك أوفى دليل على أنه من صناع الحياة الحضارية وقادتها، وإن لم يكن من قادة التنظيم والسياسة، فنبعث به إلى الجمعية التخصصية أو الرابطة التى تضم أمثاله ليستوى إبداعه ويتأصل من خلال البيئة المشجعة

التى تفهمه والنجى المماثل الذى يصحح له وينقد عن علم وخبرة، لكن مع بقاء هويته كعضو فى الجماعة الشمولية، شامخًا به مفاخرًا. وبتوالى ذلك وزيادة عدد المبدعين: يشيع المفهوم الحضارى، وتنمو التأثيرات المعرفية، ويعتدل قطاع واسع من الجيل الإسلامى، تفطمه ألوان الرسام أو لقطات الكاميرا أو جمال ألفاظ الشاعر عن رضع فكر متطرف أو وسوسة الشيطان بخطوة تهورية، ولكن من أين نأتى بنخبوى لبق يفهم هذا التحليل، أو رئيس مخابرات حريص على مصالح البلاد يستوعب هذا المنطق والتعليل.

إن القول بأن المبدع يعتبر من النخبة وسيضمه الصف حتمًا قول فيه مغالطة؛ لأننا نتحدث عن مسلم لم يظهر إبداعه بعد لتضمه، لكن التربية الشمولية تطلق كوامن إبداعه، فيعود أستاذًا بعدما كان تلميذًا، فالمبدع قبل إبداعه يكون فى حالة شرود ذهنى وتأمل صامت ليستوى إبداعه، لذلك يزهد فيه النخبوى ويظنه عديم النفع.

* **ثم مازالت أسباب الرفض لم تنته، فمنها:** أن توارى النخبة فى تنظيمها المركزى وظهور الضعفاء فى الواجهات سيجعل الرواج بعد توالى السنين لأسماء هؤلاء الأضعف، ويكونون هم والذين معهم فى الواجهة ممن ليسوا من رجال الدعوة الشمولية أقرب إلى جنى ثمرات العمل ونتائج الصراع إذا وجدت مناسبة، كانتخابات أو تغيير كبير، فتستلم المناصب الحكومية عناصر أقل كفاية من أن تقدم نموذج حكومة إسلامية أو إدارة واعية لقضية إسلامية ضخمة الحجم، وتكون الآراء السلبية التى سيكونها الشعب عن الإسلاميين متعبة لنا أشد التعب إذا أردنا الاستدراك وتصحيح النظر، وإذا كان بعض الواجهيين ممن لم يأخذوا الكتاب الدعوى بقوة ولم يؤتوا الشمول صبيانًا مع ناشئة الدعوة هم الذين يتصدرون فإن الحكومات المحلية أو العالمية قد تشتريهم أو يذعنوا لإغراء المال الوفير والدنيويات الزائلة، أو قد تشترى منهم موقفًا واحدًا، ويفتى أحدهم نفسه بجواز ذلك، وما أوسع التأول عند من لم يستتم صفاء قلبه ونقاء مصادر علمه، وبذلك تتلوث السمعة، وتزرع ألغامًا فى طريقنا، وكم هو كثير مكر أهل السوء، وكم هو فرحهم إذا اكتشفوا مفصلاً ضعيفًا فى الآلة الهادرة أو ركنًا واهيًا فى البناء الباسق.

* **وليس آخر الأسباب:** ما سيكون عليه أداء النخبة من قلة الانسجام مع العطاء الدعوى

العالمى الذى يستن طريقة الشمول التنظيمى المغايرة، وكذا مع طبيعة العمل فى المنطقة، أى فى البلاد المحيطة ببلد التنظيم النخبوى، أو القريبة منه، فمما لا شك فيه أن هناك تأثيرات متبادلة إقليمية بين أجزاء الدعوة المتجاورة التى تجمعها وحدة جغرافية واجتماعية تنتجان على الأغلب تقاربًا اقتصاديًّا وسياسيًّا، فأقطار الجزيرة العربية تتبادل هذا التأثير، وشمال أفريقيا، والقرن الأفريقى وعموم شرق أفريقيا، وجنوب شرق آسيا، فإذا انفرد قطر بتطبيق نظرية تنظيمية نشاز: تولد شذوذ وتخلف عن تصدير المحاسن إليه واستيرادها منه؛ لاختلاف الأنماط التنظيمية، وهذه سلبية فى الأداء يجب التفطن لها، خوفًا أن يكون تنظيمًا يتيمًا لا يمسح على رأسه ضيف خارجى، أو على الأقل: ينشأ عصاميًّا معتمدًا على نفسه فقط، فيطول طريقه، ولا يكون له حليف خارجى ومؤاخ يؤاخيه يهديه الطيبات أيام الرخاء ويكفله يوم الشدة، وليس يكون ذلك عن لؤم - فى أهل الشمول التنظيمى يمنعهم، أو انتقام، أو تلقين درس عقابى، ولكنها طبيعة فى النفس الإنسانية، إذ سيكون ذلك القطر فى واد، ومرحلة، وقضية، وهموم، والحلقة المحيطة به فى وديان أخرى ومراحل مغايرة وقضايا من جنس آخر، ويحصل تقاطع المواقف يؤدى إلى قطيعة فى الظاهر، وما هى كذلك، بل المحبة القلبية الأخوية أعمر ما تكون، ولكنه تضاد النظريتين.

* فلولا كان من الأجيال القيادية أولو بقية ينهون عن الإغراب والتفرد فى الفهم والأسلوب، ويستوعبون جميع هذه الأسباب التى تنتصب درسًا كاملاً فى تأثير الشكل التنظيمى فى منهجية التربية، ولو أضفنا إلى ذلك محاذير أمنية أكبر من المعتادة متوقعة عند انكشاف التنظيم النخبوى: لكان إيماننا بالشمول أعمق، لأن الخصم قد يظن أن المبالغة فى الاصطفاء ما كانت إلا لوجود أسرار عظيمة وخطط خطيرة، أو لأن امتياز الأعضاء بالصفات العالية يغريه بالضرب، إذ على أى داعية وقعت يده كان الألم أكبر، إذا ما ثم غير نبيل وشديد وذكى.

* أكبر الظن أن الدافع المحرك لاعتقاد صواب نظرية النخبة المتوارية هو تقليد لطريقة الماسونية فى التأثير، إذ إن رءوسها مختفية، لكنها تحرك كل بلد بواسطة رجالها المبثوثين فى نوادى الروتارى واللاينز وأمثالها، وهذا القياس هو قياس مع الفارق كما يقول أهل أصول الفقه، لأننا أصحاب دين وشعائر وأخلاق وحلال وحرام، ونريد من أعضائنا الالتزام بها،

والتعبد والتأله، ولا تعمر هذه الخصال إلا عبر تنظيم علنى مفتوح ويتبادل النصح فيه جميع أنواع المسلمين، صغيرهم، وكبيرهم، غنيهم وفقيرهم، أميهم ومثقفهم، عربيهم وأعجميهم، رجالهم ونساؤهم، يجمعهم صعيد واحد، وتتكون بهم بيئة مساعدة على العفاف وتزكية الأنفس. أما الماسونية فحركة هدامة؛ لا تلتزم بدين أو خلق، بل تتعمد نشر الفساد وتجعله وسيلة لكسب الأعضاء والمتنفذين، وبذلك لا تضرها سريتها، ومن هنا بالغ الأستاذ المودودى ﷺ فى «تذكرة دعاة الإسلام» فى نقض نظرية السرية فى العمل، ورأى أنها قد تقود إلى باطنية، وحاشا دعاة الإسلام من ذلك، ولكن لجفلته أصل، فقد تكون باطنية الاعتقاد مستبعدة، لكن باطنية الأذواق وطرائق التعامل وطلب الطاعة العمياء تشبهًا بالماسونية كلها بدع محتملة الحدوث، عبر الإملاء النفسى والأجواء اليابسة التى لا تنديها طراوة استرسال الفطر البريئة لدعاة الإسلام فى تعاملهم الأخوى فى الأرض الرحبة تحت الشمس فى رياض الشمولية التنظيمية والشمولية الفكرية معًا، برعاية تربية ذات منهجية محكمة.

وبعض وسوسة النخبوية السرية تمليها أحيانًا ضغوط واقعية، حين يتوسع التنظيم الدعوى فى سياسة رفد الواجهات بأحسن عناصره، ويبعث طائفة أخرى من نبلائه إلى الأحزاب الإسلامية الأخرى، لا تجسسًا عليها، بل تقريبًا لها منا وترشيدًا وتمكينًا، ثم يلتفت القائد فيجد أن من بقى معه من الأشداء قليل لا يتوازن بهم عمل كامل، وأن الضعفاء أصبحوا عبئًا ثقيلاً على الإدارة التنظيمية والتربوية، فيبدأ التفكير بغلق موارد الضعف، وانتهاج النخبوية، ليعتدل مستقبله، ويكتشف أنه فى ورطة حقيقية: إن فرط بأحسن دعاته ووهبهم إلى الواجهات والأحزاب الأخرى فقد حكم على نفسه بالضعف، وإن بخل واحتكر المعادن الثمينة فإن سياسات التحالف والتآخى والتقارب بين الأحزاب الإسلامية والواجهات ستضعف، وأحلى الحلين مر. والصواب الذى يوافق فقه الدعوة الموروث: أن عنايته بترسيخ وتوسيع تنظيمه الشمولى الأصلى المعلن أولى وآكد، لأن هذا الانكفاء سيكون مرحليًّا فقط وإلى حين، وحين يشتد عود تنظيمه، ويتوسع بما فيه الكفاية: يؤذن له آنذاك أن يبدى كرمه ويبعث بعض الأشداء الذين معه إلى الكتل الأخرى ينفعونها بأنواع النفع، من وعى وتخطيط وحث على التآخى ورفد بالمال، وغير ذلك، وكأن بعثه لبعوثه كان استعجالاً أوقعه فى ورطة ولدت اضطرابًا فى صفه، فحدثته نفسه بالاصطفاء، ناسيًا أسبابنا المنطقية

الناقضة.

إن هذه الحجج التى سقناها لا تنفى كلام سيد قطب ﷺ فى وجوب الصفوة والقاعدة الصلبة، إذ يفسر كلامه بالحسنى، ولم يرد فى سطوره ما ينفى تجميع الأقل ذكاء والأضعف وغير الجرىء، لكنه أراد تكثيف العناية بتربية الرجال حتى تتكون هذه الصفوة التى تثبت على الحق عند الخطوب والشدائد كما ثبتت صفوة الصحابة ﷺ يوم بدر وبعد الفتح فى هوازن ويوم الردة. كما أن هذه الحجج لا تنفى ما ذهبنا إليه فى المنطلق والمسار من الدعوة إلى فقه الاصطفاء والحرص على الأذكياء الشجعان، فإن الحسنى تشرح المقصد ثانية، ومن ذا الذى جرؤ على أن يناقش صحة تفضيل حيازة الذكى الشجاع إذا كان بالإمكان ذلك، أما أن يتطور الأمر إلى أن يكون شرطًا فى الانضمام، ونغلق بابنا أمام غيرهما: فابتداع وتكلف نبرأ منه. والذى نعتقده أن صفة الصفوة تكمن فى شعور الداعية بالعزة، وفى مفاهيمه السليمة، ولو كان أميًّا عديم الخبرة، وكان أخى فى الله عبد الملك السمين الأعظمى ﷺ بقالاً يبيع الخضر والفاكهة والأجبان فى محل صغير نظيف، لكنه كان يدخل فى حوارات جادة مع بعض عملائه من الوزراء ورجال السياسة العلمانية، وكان أحدهم أحمد حسن البكر الذى صار رئيسًا للجمهورية، وكانت حجج عبد الملك على طول المدى هى الأقوى، ولسانه الأفصح.

لكن مع وضوح منطقنا فى الرفض، والظن بأنه مقنع لكل نخبوى أن يعدل عن رأيه ويرجع إلى الشمولية – هل الصيرورة إلى اختيار نظرية الصفوة المتوارية يدخل فى الحرام، أو يخرج أصحابها عن أن يوصفوا بأنهم جزء من الدعوة الإسلامية؟

لا يقول فقيه من فقهاء الدعوة بمثل ذلك، ولا يفتى أحد بحرمة أو تخطئة أبدية، لأن فقه الشكل التنظيمى فقه مرن يستجيب للظروف، والمذهب المشهور فيه أنه ليس من الثوابت، بل من المتغيرات، والاجتهاد فيه سائغ، وإنما معظم حديثنا يدور حول حجم المصالح أو كيفية درء المفاسد التى يجلبها كل نمط من أنماط التنظيم، ونحن نقر بأن نظرية اصطفاء النخبة وتواريها وإدارتها للأقمار التوابع لها بجاذبيتها المركزية المسيطرة يمكن أن تعد فى عداد النظريات الدعوية الإسلامية، وجزء الدعوة المتكون منها هو جزء من الدعوة الإسلامية العامة، لكنه ليس هو دعوة الإخوان المعروفة، قطعًا جزمًا، إنما هى دعوة أخرى يمكن أن تتعاون معها حركة الإخوان، وتحالفها، وتنصرها وتدعو لأصحابها بكل خير، من غير أن

تعترف بها كجزء منها يمثلها أو يمثل فهمها ونمطها فى العمل.

ويتأكد هذا المعنى جليًّا إذا أطلنا النظر إلى حقيقة هذا الخلاف، فالتأمل يوضح أن قضية النخبوية تتعدى أن تكون مجرد قضية متعلقة بالشكل التنظيمى، وإنما هى متعلقة بموضوعه وبشروط الانتماء إليه، مما يجعل للثوابت الشرعية والدعوية فيه نصيب كبير ويقلص نسبة المتغيرات، **لأن الاختلاف تعدى أن تسأل نفسك:** كيف أنظم من جمعتهم؟ **وإنما:** من هم الذين أنظمهم؟ فهو ليس بأمر شكلى، بل من صلب فقه توصيف الداعية، وهذا مذهب آخر فى القضية يقلص المرونة التى تذرع بها من يصنف الأمر فى دائرة الشكلية العديدة الأنماط. والقلب يشهد لصالح هذا الفهم، ونظن أنه هو الصواب.

والله يوفق الدعاة إلى الأصلح ويلهمهم إياه إذا أصابت قلوبهم وإن أخطأت اجتهاداتهم.

* * *

obeikandl.com